www.assafir.com

ثقافة

تاريخ المقال: 13-12-2014 01:41 AM

غلبتَ الموتَ بما لا يموت

دياب يونس

مرحبًا، مصرُ، مرحبًا يا شقيقتَنا البِكْرَ،
يا مَنْ اسمُكِ يغلو على لبنانَ ويحلو:
فَلَنَحْنُ فَرْعانِ أَلَّفَ الشرقُ قَلْبَيْنا على الحبّ والحضارةُ أصلُ
مُعْجزاتُ الزمان منكم وممّا زِنَّ جِيْدَ الوجود والدهرُ طِفْلُ
هَرَمٌ تَجْثم العظائمُ فيه، وسَفينٌ على البحار يُدِلُّ!
مرحبًا، إسكندريّةُ، مرحبًا يا نجمةَ البحار، وياسيّدةَ الرُّبى، ها وَكْرُ النسور لبنانُ يُهدي، اليومَ، إلى آفاقك نسرًا عبقريَّ الجناح، لبنانيَّ الجوارح، مشرقيّ النبرات، عالميّ الهموم، إنكليزيَّ اللسان.
في موكبِ مَنْ كان وحدَه موكبًا، جِئْنا نَحُفُّ بجودت حيدر وفي مكتبة الإسكندرية الخليقة باسمها، نحتفي.
بأرزةٍ مضمّخةٍ بعبير لبنانَ نستظلُّ. نَتَفَيَّأُ بسروةٍ حيدريّة كريمةِ الأصول والأعراق، هيفاءِ الأفنان، وارفةِ الظلال، قُدَّ من مَرْمَرِ قلعةِ بعلبكَّ قوامُها، ونُحِتَت من بُرْكان جسارتها قسَماتُها: فأرضُ لبنان تُنْبتُ الأعمدةَ كما أرضُ الكِنانة تُطلعُ الأهرامَ.
فَرْدَسَ جودتُ حيدر لبنانَ حيثُ جمالٌ وحُلْمٌ، بتناغمٍ، يتزاوجان. ومِحْوَرَ الكَوْنِ جَعَلَه وجَعَلَ أَرْزَه والزَّمانَ تِرْبَيْنِ.
ومثالاً للحرّيّة والتحرّر رَفَعَهُ، فلا قامَ في لبنانَ عرشٌ، ولا صَمَدَ في لبنانَ طاغٍ./ لِنُصْغِ إلى هذا النَّبيّ الناريّ النبيل يقول:/ « شعبُنا يُساقُ ويُذبَحُ في الجبال والسهول./ أيّها العالم! أوَليسَ فيكَ مَنْ يأبَهُ؟» ويُكملُ:
«يا أبطالَ جَنَّةِ بلاد الأرز العريقة، استعدّوا للصمود غيرَ هيّابين./ يا رجالاً استحالوا سلاحاً ليموتوا، ليَحْيَوا، يا مَنْ في عروقهم صاعقُ الإيمان يفجّرونه عند الطلب دمارًا يمحَقُ شذّاذَ الآفاق ... .
وفي لبنانِ جودت حيدر كما في لبناننا، كما في مصركم، أرضُنا واحدة، وسماؤنا واحدة، وكتبُنا المقدّسة كلُّها كتابُ الله : « فَأَنّى التفتَّ وكيف طُفتَ به ترى حبًّا تَنَصَّرَ أو إخاءً أسْلما» .
وبلهجةِ عَرّافٍ إغريقيّ قديمٍ حكيمٍ يُجاهر : « مَثَلُ من يحاربُ دينًا من الأديان السماويّة مَثَلُ من يُطْلقُ النار على نجمٍ ليجعلَ من شعاعه فَيْضَ عتمةٍ من الظلام».
وكتبَ:
« لقد أيْقَنْتُ أنّ الهوادي آمنتْ بالإنجيل والقرآن ديناً ... وأنا أنظرُ إليها تركع بخشوعٍ وتُعَمّدُ الشواطئَ وتصلّي صلاةَ الغروب والفجر على الرمال». وتابعَ:
« ومن أعلى درجاتها، سمعتُ الأسماكَ وسائر الكائنات في البحر تنادي: « نحن تَعَمَّدْنا وآمَنّا وآمَنَ البحرُ على يدِ شاعرٍ عربيّ».
وَلَعَلَّني أَسمعُ شاعرَنا الحيدريَّ العربيَّ يخاطبنا، يقولُ:
«أمّا العروبةُ، يا عَرَبُ – وهي بينَنا ذمَمٌ وعهودُ حضارة – فعلى منابرِ لبنانَ وفي مغاورِ لبنانَ كانت موالدُها؛ وفي أبياتِ يازجيّنا بيوتُها؛ وفي ساحات النضال وغياهبِ الأناضول شهداؤنا الذين لم يموتوا. ما أَغْرَقَهم

البوسفور: فَهُمْ عند ربّهم وعندَنا في الضّمائر أحياءُ يُرْزَقُون. نحنُ نقتُلُهم كلَّما ميَّزْنا عربيّاً من عربيّ، كلّما فَصَلْنا مسيحيّاً عن صدر مسلم، كلّما آثرْنا مواطنًا على مواطن، كلّما تَكافَرْنا وتَقاذَفْنا الحِمَمَ والتُّهَمَ، كلّما تَسَلَّلَتْ إلى عقولنا وأيدينا حَمِيّاتُ الجاهليّة، كلّما عُدْنا القَهْقَرى الى عهود البربريّة، كلَّما أَصْمَمْنا آذانَنا عن سماع جودت حيدر يجودُ ويُجيدُ و يُجَوِّدُ».

وكأنّي به، إزاءَ انتهاك حقوق الإنسان، ولا سيّما في فلسطين، يُهيبُ بقومه ازدراءَ التضحيات:

«كفاكَ نَوْمٌ. أَلا قُمْ وسلِّحْ رجالَك/ أُخْرُجوا، معاً، من الظّلّ، وأَقْدِموا/ فَليس بالكلام تُكْتَسَبُ حقوقُ الإنسان بل بالدم والسلاح والوحدة./ لا تَقْلَقْ إِنْ طلقةٌ أخطأتْ هدَفَها/ فلعلَّ الثانيةَ تُصيبُ، فمَن يَعْلَم؟/ أمسِ هو الماضي، اليومَ، كلُّ شيء ممكن،/ غدًا ستكون أفضلَ تسديدًا. ألا استأنِفِ الرماية.

وعلى غرار جورج حنين، ذلك الهَرِمِ المصريّ الفرعونيّ الذي ارتفع بالشّعر السوريالي، فرنسيًّا، إلى قمَمٍ قلّما تطاول إليها كبارُ السورياليين الفرنسيين أنفسهم، مضى جودت حيدر، ذلك القلعةُ اللبنانيّة الرّابضة على صدر الزّمان، يحمل لبنانَه وعروبتَه ومشرقيتَه في دمه وروحه وقلبه واللسان،ويرتّل بنبرات النّبيّين رُؤىً كونيّة، ويقيم طقوسًا احتفاليّة تصدَحُ، عَبْرَها، «أصواتُ» الحب والمحبة والطبيعة والحرّيّة، وتنهمر «ظلالٌ» تُخفي في بواطنها عوالمَ من السّرّ، وتترجَّعُ «أصداءُ» من أعماق حسّه الصوفيّ وتجذّره الإنساني، مثبتاً بذلك كلّه أنّه أحدُ هؤلاء القدامسة الذين نَظَمَ سعيد عقل ملحمتَهم، وَوَصَفَهُمْ حافظ إبراهيم بالغطارفة، وعناهم الشاعر السنغالي الفرنسيُّ التعبير الرئيس ليوبولد سيدار سنغور في مخاطبته اللبنانيين: «أنتم الشعبُ الأكثَرُ عروبةً، وأنتم، في الوقت عينه، الأكثَرُ عالميةً وشموليّةً».

فيا شاعرًا عَرَفَ أن يَنْحَتَ أحرفَ اسمه على صخرة الزمان، وأن يَغْلِبَ الموتَ بما لا يموت،

ويا شاعراً أَوْقَرَتْهُ السُّنون فباتَ يلمح في ضريحه عظامَه فيستصرخُ الرّحْمَنَ، متحسّرًا، أنْ يُغيثُه، أَلا اهْنَأْ بالاً، يا شاعرُ، فما أنتَ من تُراب كي تعود إلى تراب؛ فقد رأيناك بعد موتك صاعدًا الى الذاكرة، وسَمِعْنا ضريحَك يصيحُ بك: «إرحَلْ، يا مَنْ جَوَّدْتَ الشّعرَ، فلا متَّسَعَ، بعدُ، لميتٍ خلفَ بابي».

دياب يونس

جريدة السفير 2014©